أسامة العيسة

بطاقة

أسامة العيسة كاتب وباحث وصحفي صدرت له العديد من الكتب أهمها: رواية " (المسكوبية "فصول من سيرة العذاب") "، (مجانين بيت لحم)، و(مخطوطات البحر الميت "قصة الاستكشاف") - وقصة اغتيالات قادة انتفاضة الأقصى - وداعا يا دنيا - كم طلقة في مسدس الموساد الإسرائيلي، كتاب معي " كيف الحال أنا مشتاق لك"، من خان آيات الأخرس؟ - وثائق وأسرار أبو عمار - وكتب أخرى. .

*** هل يمكن إعطاؤنا لمحة عن البدايات.. من هم الكتاب الذين تأثرت بهم..؟**

مثل كل الأدباء في الشرق والغرب، يبدأون بالشعر، أنا أيضًا بدأت مبكرا بالشعر، والزجل، وتأليف الشعارات التي رددناها في التظاهرات، أو كتبناها على الجدران.

ولكنني تحولت سريعا إلى كتابة القصة القصيرة، حيث صدرت لي مبكرا مجموعة قصصية بعنوان (ما زلنا نحن الفقراء أقدر الناس على العشق-القدس ١٩٨٤)، ثم قصة طويلة بعنوان (الحنون الجبلي-رام الله ١٩٨٥) وقد يكون من الملفت أن المجموعة الأولى هي التي لم يَزَلْ قرائي، وهم عدد لا أظنه كبيرا، يذكرونها، ومع انتشار وسائل الاتصال

الالكترونية الحديثة، أتلقى رسائل من قراء يتساءلون أليس أنت صاحب (ما زلنا...)؟. أظن أن بعض الكتب، مثل كثير من البشر، ترتبط حيواتها، بحظوظها.

قرأت لكثيرين من الكتاب العرب والأجانب، من جبران خليل جبران والمنفلوطي، ومصطفى صادق الرافعي، إلى يوسف إدريس، وعبد الرحمن الشرقاوي صاحب (الأرض)، وتوفيق الحكيم، وطه حسين، وكُتاب مرحلة الستينات في مصر، والقاص سعيد حورانية، ومن الأجانب شدتني عوالم تولستوي، ودستوفسكي، ومكسيم غوركي، وفكتور هيجو، وارنست هيمنجواي، وميخائيل شولخوف، وجنكيز ايتماتوف، والبير كامو، وجون شتاينبك، وفوكنر، وارسكين كالدويل، وماركيز، وميلان كونديرا، وماريا يوسا، وامبيرتو ايكو، وغيرهم كثر.

وتعددت مطالعاتي في التراث، فقرأت ألف ليلة وليلة أكثر من مرة، والأغاني، والعقد الفريد، والمقامات، والحلاج، والمتنبي، والمعري، والجاحظ، وإخوان الصفا، والأدب الأندلسي، والمعلقات والشعراء الصعاليك، وفتنتني لامية الشنفرى، وتوقفت عند شاعر عظيم، هو طرفة بن العبد. ولم أفاجأ، عندما وجدت أن الكاتب اليوناني الكبير نيكوس كازينتزاكس اقتبس شعرا منه.

في معتقل الفارعة العسكري، الذي افتتحته سلطات الاحتلال في بداية ثمانينيات القرن الماضي، وكنت من الأفواج الأولى التي دخلته، سمحت سلطات الاحتلال للصليب الأحمر بإدخال مجموعة قليلة من الكتب الدينية والوجودية، وهناك اكتشفت ما يمكن أن اسميه الوجه الآخر لسيد قطب، وأقصد الجانب غير المعروف عنه، كمفكر وناقد وأديب، وبفضله تحمست لإعادة قراءة واستكمال الدخول إلى عوالم كاتب عظيم مثل نجيب محفوظ، الذي قدمه سيد قطب إلى الساحة الأدبية، وكذلك

الانتباه إلى أهمية الكتاب المقدس الأدبية، من خلال تناول سيد قطب لأحد أشهر نصوص العهد القديم وهو نشيد الإنشاد.

*** ماذا استفادت القومية العربية من إعدام سيد قطب؟ وماذا كان سيستفيد الإسلام، لو نجح ذلك الشاب في اغتيال نجيب محفوظ..؟**

فلسطينيا، توقفت كثيرا عند إميل حبيبي، الذي يختلف معه كثيرون، وقد أوافقهم الرأي، في مواقفه السياسية والفكرية، ولكن لا شك بان أدبه يشكل استثناءً في الأدبين الفلسطيني والعربي. وهو أحد كتاب المكان الفلسطيني النادرين، وبعض كتاباته مثل (أخطية) تشكل ذاكرة حيفا التي لا يمكن أن تمحى، بسبب عمل حبيبي هذا. اللغة والمكان بطلا أعمال إميل حبيبي.

قد لا أستطيع تحديد الكتب والكتاب الذين اثروا في، ولكن لا شك بان أية عوالم قدمها الكتاب الكبار، الذين ذكرتهم، لها تأثير. الكتابة لا تأتي من فراغ.

*** تكتب القصة والرواية. فضلا عن البحث في التاريخ والتراث.. أين أنت من كل هذا..؟**

قد يكون ذلك يعود لتنوع الاهتمامات، ولكن أيضًا ربما يعود إلى الفضول المعرفي،أردت، وما زلت، ولم أصل إلى نهاية الطريق، وأظنني لن أصل، أن أعرف هويتي كفلسطيني التي ورثتها بالجينات، ولكنني أريد معرفة كنهها معرفيا، وبصراحة لم أجد ما يساعدني على ذلك في الكتب التقليدية سواء المدرسية، أو تلك التي وضعها ويضعها أجيال من الكتاب "القوميين" أو "الوطنيين" أو "الإسلاميين"، إنهم يكررون أنفسهم، ينتجون، ما ينتجونه على المكاتب.

ويخيل إليّ، أن حياتي قد لا تكون أكثر من رحلة، لن تكتمل، بحثا عن الهوية.

*** استوقفني إهداءك رواية " المسكوبية " إلى ابنك باسل..، الذي كان عليه هو الآخر أن يكتوي بالمسكوبية، وعمره (١٥ عاماً)... والذي كان اقتحام مخيم الدهشة من قبل جنود الاحتلال الصهيوني بحثا عنه..؟**

ابني باسل (١٩ عاما الآن) هو أحد المضربين عن الطعام، في الإضراب الذي تخوضه الحركة الأسيرة، أو قسم منها الآن، ولم أتوقع، يوما، أن أعيش عمري كله في ظل الاحتلال، وأتزوج في ظل الاحتلال، وأنجب أبناءً يُعتقلون في سجون هذا الاحتلال. يبدو لي أحيانا انه احتلال لا ينتهي، وأنَّ يعيش المرء عمرا في ظل احتلال، لهو تجسيد لأكثر الماسي الإنساني ة تراجيدية وتأثيرا، ربما أهديت روايتي لباسل كنوع من الاعتذار، عن الفشل، وعن الانقسام، والاحتراب. وعجزي عن حماية الطفل الذي كأنه من البطش الاحتلالي.

صدقني عندما أنظر الآن، من نافذتي وأرى الأنوار الخافتة في منازل ناسنا، أشعر بفداحة قضاء ليلة أخرى في ظل احتلال. والصحو مبكرا ليستقبلوا يوما جديدا، من مكابدات احتلال قاس آه ما أقسى الاحتلال.

*** أشار العديد من النقاد إلى روايتك الجميلة "المسكوبية".. واعتبروها عملا مختلفا ومتميزا بالنسبة لـ " أدب السجون"..وسؤالي لماذا كانت هذه الرواية..وكيف تراها أنت..؟**

أظن أن أسوأ شخص يمكن أن يتحدث عن عمل له، هو الأديب نفسه، ولكنني مثلما حاولت دائما أن أكون صادقا، في ما أكتبه، فعلت ذلك في (المسكوبية).

بالنسبة لي لا وجود في فعل الكتابة لأي نوع من الكذب، قد يكون هناك نوع من الكذب، أمارسه أنا ويمارسه غيري في الحياة، خارج النص الأدبي، نتحدث بلغات مختلفة، في البيت، وفي المكتب، والشارع، نرتدي أقنعة مختلفة، ولكن بالنسبة للأدب فإن الأمر بالنسبة لي مختلفا، وقد يكون هذا أحد الأسباب الذي جعلني أؤخر نشر بعض أعمالي التي كتبتها في عقد التسعينات حتى الآن. المجتمع قد بتسامح مع أي شيء، إلا الأفكار المختلفة، وقول علنا ما نقوله سرًا.

أعلم أنه في العالم العربي، قطع الكُتاب شوطا مهما ولا يمكن إنكاره في كتابة إبداعية تحقق شرطها الفني والتاريخي، ولكن في الأراضي الفلسطينية، فان الحركة الثقافية تراوح مكانها، ولا مكان فيها لكتابة مختلفة، إلا فيما ندر. وأعجب كيف يتم الترويج لكتابات هي دون المستوى، ويصبح كتباها وكاتباتها، لأسباب غير إبداعية، ضيوفا على وسائل الإعلام الفلسطينية، وهي وسائل إعلام غير مستقلة، وإنما متحزبة.

*** يتسم أدب السجون بشكل عام بالتقريرية.. والتسجيلية.. والتأريخ.. مما قد يضعف بشكل ما العمل الإبداعي.. ما رأيك..وهل ترى انك استطعت فعلا تجاوز كل هذه الأمور لتقديم هذا العمل الجميل..؟**

أتمنى أنْ أكونَ قد نجحت، أتمنى أن أكون قدمت شيئا من روايتنا ومن سِفرنا، وفي الوقت ذاته أشعر بالتقصير، وبالعجز، وأسأل نفسي دائما كيف يمكن أنْ اكتب مثلاً عن صديقي عيسى عبد ربه الذي دخل عامه التاسع والعشرين في السجون؟. تسعة وعشرون ربيعا وشتاءً وصيفا وخريفا. ٢٩ عاما لم يَرَ فيها السماء كاملة، وإنما عبر الشبك، رآها مقسمة، مكعبات، مثل قطع حلوى البقلاوة. ليجرب أي شخص أن يرى

السماء من خلال شبك، وليخبرني كم يمكن أن يصمد، وأي كابوس سيصيبه..؟

أظن إننا لم نكتب السطر الأول في ملحمتنا..! لم نكتب كيف يمكن أنْ تصبح رؤية السماء كاملة، أمنية..!

* **في تصريح لك تقول فيه: إنك استندت إلى بحث ميداني وتاريخي أنجزته اعتمادا على الرواية الشفوية والمدونات الخاصة والمذكرات، وتناولت قضية الأسرى خارج الصورة النمطية التي قدمها الأدب الفلسطيني والعربي وحاولت رد الاعتبار لإنسانية الأسير الفلسطيني..هل يمكن إيضاح تلك النقطة..؟**

لا توجد كتابة، أدبية أو بحثية، أو صحافية حقيقية، خارج البحث الميداني، رواية المسكوبية، هي بشكل أو آخر رواية مكان، كما لاحظ ناقد مستقل أعتز به كثيرا وهو الدكتور عادل الأسطة، والمكان الفلسطيني، غير مكتشف، ماذا نعرف عن أمكنتنا؟ لا أريد الإجابة عن السؤال، لأنها ستكون فاضحة، ماذا نعرف عن القدس؟ عن بيت لحم؟ عن رام الله؟ عن نابلس؟ عن جليلنا، عن نقبنا؟. ماذا نعرف عن طقسنا، وعن نباتاتنا، وعن حيواناتنا..؟

قرأت لكتاب متحققين تحدثوا فيها عن المكان الفلسطيني، وكأنهم يتحدثون عن أماكن في القمر، مثلا قرأت مؤخرا رواية (وادي الحوارث) للكاتب المعروف توفيق فياض، الذي يتحدث فيها عن مخيم الدهيشة وبيت لحم والقدس، ولكن هذه الأماكن التي خبرتها لم أجدها فيما كتبه فياض، ويمكن أن يقاس ذلك على كتاب آخرين، ومرده الاستسهال، وقلة الحيلة، وعدم احترام القارئ، والمكان.

وأتساءل ما المانع لوّ تم تقديم الرواية، إلى محرر ومراجع خبير في

القدس مثلا؟ الأدباء أسوأ من السياسيين في عدم احترام الناس. النوايا الحسنة فقط لا تصنع أدباً.

أي كاتب في الغرب مثلا، تخضع دار النشر مؤلفه، للجنة قراءة، وبحث وتدقيق في معلوماته، في بلادنا يمكن أن تكتب أي شيء، وتنتمي لعصابة أدبية، أو سياسية، لتصبح كاتبا يشار إليك بالبنان. أو أن تتخفى تحت اسم أنثوي مستعار، حتى يسعى خلفك أدباء الشرق أُدباء العُقد الجنسية الراسخة.

أتعرض بشكل دائم للخديعة، أقرأ، ما يقوله الأدباء والنقاد عن عمل أدبي، وعندما أبحث عنه واقرأه، اكتشف بأنني كنت مخدوعا، وان من كتب تقريظا له فعل ذلك مجاملة لصاحبه، أو تقربا غير بريء من صاحبته.

قد يساعدنا البحث الميداني، والاستعانة بعلوم أخرى، كالتاريخ، والجغرافيا، والآثار، والميثولوجيا، وعلم النبات، والحيوانات، والطقس، والفلكلور، والأساطير، على معرفة القليل لكي نبدأ الكتابة، وهذا ما أفعله، في ما اكتبه وليست (المسكوبية) استثناء، وإن كان زملائي الكتاب والنقاد الذين قرأوا العمل، ثمنوا ذلك، ومعظمهم سألني: من أين أتيت بكل هذه المعلومات؟ رغم أن الرواية كعمل إبداعي، كما تعلم ليس فقط معلومات.

الكتابة فعل جدّي، بل بالغ الجدية. مثل ما يجب أنْ يكون عليه أي عمل آخر، مثل تشييد بناية، الرواية بناية، ومعمار، يستلزم تخطيط هندسي، واختيار مواد البناء، ومعرفة أين يمكن وضع هذه اللبنة أو تلك.

* **لفت نظري اعتمادك على التقطيع، والانتقال من الحاضر إلى الماضي، والعودة ثانية إلى الزمن الحاضر، أي أسلوب الاسترجاع** flash back.. **لماذا..؟**

أجتهد في كل عمل جديد، سواء أكان إبداعيا، أو بحثيا، أنْ يكون بشكل أو بآخر مغامرة في الشكل والمضمون، وأنا لا افصل بينهما أبداً، ولست من الذين يتساهلون مع مضمون يحمل رسالة ما، على حساب الأسلوب والشكل، ولا أرى مضمونا جيدا، بدون شكل مناسب، وأعتقد بأنني في (المسكوبية) ذهبت بعيدًا في التجريب الروائي، مستفيدًا من الأساليب البحثية والصحافية، مثلا، وليس فقط الفلاش باك.

ورغم نجاح هذا الأسلوب، حسب الأصداء التي تركها العمل لدى النقاد والقراء، فإنني لن أعود إليه مرة أخرى، وهو ما سيلمسه القارئ مثلا في روايتي (قبلة بيت لحم الأخيرة) وهي تحت الطبع الآن، ومن المتوقع أن تصدر في بيروت خلال الأشهر الثلاثة المقبلة. وكذلك الأمر في عمل آخر، يحمل اسم (مجانين بيت لحم) عن تجربة المجانين العرب والفلسطينيين في مستشفى الأمراض العقلية في بيت لحم. لا يجب أن تشبه بناية، مهما كانت جميلة، بناية أخرى، وإلا لما كنا قدمنا جديدا.

* **أيضا، الملفت محاولتك الغوص في نفسية المعتقل وصراعاته الداخلية في مختلف المراحل والتجارب التي يمر بها كصاحب حق وصاحب قضية، (لا يوجد خلاص لك من زنزانتك إلا أن تكون نفسك، صاحب قضية، تريد أنْ تنتصر على محقق يجب أنْ تراه مجرد خادمٍ يدافع عن قضية خاسرة)..؟**

عندما يُحشر المرء في الزاوية، أية زاوية، يُنشط أدوات الدفاع الذاتي، التي تكون كامنة، وعليه اكتشافها، وقد لا يكون اكتشافها سهلا، ولكن في معركة الإرادة، يحقق بعض الأسرى انتصارات هنا وهناك، في حين يخفق كثيرون، الأسر، تجربة حياتية وإنسانية بامتياز، بالإضافة إلى المعاني الوطنية والرمزية، تكشف مكنونات النفس البشرية، أكاد أجزم أنَّ

الشخص الذي يخوض هذه التجربة، لن يكون نفس الشخص، بعدها، سواء أكان هذا التأثير إيجابيا أو سلبيا، أو مدمرا.

نحن قبل السجن، لسنا الذين في داخله، أو الذين خرجنا منه. كم أسيرا تحرر، وتجاوز التجربة ايجابيا ليحولها إلى فعل إنساني محترم؟ وكم أسيراً خرج لينضم لأجهزة السلطة الأمنية ويمارس التعذيب، الشبيه بما مورس عليه من قبل الإسرائيلي ين؟.

*** تعتمد التبسيط الكبير في اللغة بشكل عام سواء في روايتك تلك أو قصصك الأخرى.. هل هي سمة وميزة أم أن العمل يفرض مستوى اللغة وتراكيبها..؟**

ما تسميه التبسيط، هو بالنسبة لي مرحلة متقدمة في تطوري الأدبي، وحتى إشعار آخر، فإنني سأبقى متمسكا بالاقتصاد اللغوي، والجمل القصيرة، وتقديم لغة بقدر ما تستفيد من الفصحى، فإنها تستفيد من التراث الغني للغة المحكية.

*** أيضا كان ملفتا ذلك التداخل المكاني والزماني في هذه الرواية.. المسكوبية وكيف تأسست، ومن ثم كيف تحولت من مكان حج روسي إلى معتقل..؟**

المسكوبية، هي بشكل آخر كما ذكرت، رواية مكان، رواية القدس، قدسي أنا في فترة معينة، لكل منا قدسه، قدسه الواقعية والرمزية، القدس مثل المدن العظيمة الأخرى، لا تقدم نفسها بسهولة، وكثيرون يعيشون فيها ويرحلون عنها، دون أنْ يلامسوا إلا سطحها الخادع، رغم أنهم يظنون أنهم عرفوها.

أما المسكوبية كمبنى، فهو أحدى أولى البنايات، التي شيدت خارج

أسوار بلدة القدس القديمة، كانت خطوة بالغة الأثر لمدينة تتحسس خطواتها نحو حداثة من نوع جديد، تداخلت فيها صراعات دول عظمى. خاضت حروبا فيما بينها عنوانها النفوذ على أرضنا مثل حرب القرم.

المسكوبية كانت مدينة روسية حقيقية، داخل القدس، استولى عليها البريطانيون، الذين انتصروا في الحرب العالمية الأولى، وحولوها إلى سجن، لقي الكثير من المقاومين الفلسطينيين والعرب حتفهم فيها، واستكمل الإسرائيلي ون المهمة، وبالإضافة إلى ذلك استولوا على الرواية، فخصصوا متحفا في أحد جوانب المبنى لما يصفونه تخليداً لنضال رجال الحركة الصهيونية، الذين عُذبوا واعدموا في المسكوبية على أيدي البريطانيين.

إذن المكان هو أيضًا ميدان لصراع على الرواية. هي معركة شرسة، الطرف الآخر لديه الانتباه لأهميتها وخطورتها، أما نحن.. فما زلنا نمجد مواضيع الإنشاء المملة.

*** لم تتوقف في روايتك عند المعتقل السياسي.. فقد تناولت بإسهاب معطيات العالم السفلي الفلسطيني من خلال المعتقلين الجنائيين مع المعتقلين السياسيين.. ما الذي تعتقد انك أضفته من خلال هذا التناول..؟**

حاولت في المسكوبية تقديم العوالم التحتية لمدينة القدس، وهو عالم غني جدا، وتتداخل فيه العلاقات مع العوالم "الفوقية" أو "السطحية" أن جاز التعبير.

وأود هنا الإشارة، إلى انه في حين إن المعتقلين السياسيين، لديهم القدرة، لأسباب كثيرة، على إسماع صوتهم، فان هذا الأمر مفقود، وأيضا لأسباب كثيرة عند المعتقلين الجنائيين، حتى أن قضاياهم، تغيب

عن اهتمامات الرأي العام، ولا نعرف حتى عدد معتقلينا من هذا النوع في سجون الاحتلال.

لا يوجد فصل ميكانيكي، كما أوضحت في روايتي، بين عالمي الجنائيين، والسياسيين، ففي كثر من الأحيان، يتبادلان الأدوار، وهناك من اعتقل جنائيا، ليعود إلى السجن سياسيا. الاحتلال عندما يمارس سطوته، فإنها تشمل جميع من يقع عليهم الاحتلال. ولا يترك حتى للجنائيين أن يستمروا في عيش حيواتهم التحتية..!!، أعرف مثلا، لصوصا تحولوا إلى مقاومين، نفذوا عمليات ضد الاحتلال. واعرف مناضلين تحولوا إلى لصوص، واعرف مساجين جنائيين، في سجن المسكوبية، حالوا دون انهيارات مجموعة من الأسرى الأطفال في التحقيق القاسي في زنازين هذا السجن.

*** كما تناولت أيضا السجان الذي سلبه عمله الطويل في السجون الروح الإنساني ة، بحيث صار التعذيب جزءاً من هويته وطبيعته..وأشرت إلى هذه الازدواجية والتناقض بين حياة في السجّانين وحياتهم خارجه مع عائلاتهم..؟**

تطرقت إلى هذا الجانب ولكن ليس بشكل تقريري أو اتهامي ساذج فتلك مهمة السياسيين، ولكن من خلال ملاحظاتي على نفسيات السجانين، السجان وهو يسجن السجين، يصبح سجينا مثله.

بطل رواية المسكوبية يستهزئ بالمحقق، الذي يقول للأسير الذي يخضع للتعذيب، بأنه سيقضي ليلته مشبوحا، بينما المحقق سينام ليلتها في أحضان زوجته أو عشيقته. أي نفسية هذه التي يمكن أن تكون لشخص، يمارس فعل الحب مع امرأة، وهو يعلم أنه ترك إنسانا آخر معلقا يرتجف من البرد، ومن الخوف؟. ماذا يمكن أنْ يسمى ذلك في علم النفس..؟

obeikandi.com

لا تتوفر لدي معلومات عن مصائر سجانين إسرائيليين مارسوا التعذيب في سجون الاحتلال، ولكن لا أظن إنهم يستطيعون أن يتخلصوا بسهولة عن ما يثقل ظهورهم.

تعرفت وأنا طفل، على مسن فلسطيني، عمل سجانًا في سجن عكا، في زمن الاحتلال البريطاني، واستمعت إلى حكاياته كـ "عبد مأمور" ويخيل إليّ أنه عاش عمره لكي يجد تبريرا لحياته السابقة، ولوّ من خلال حكايته للطفل الصغير الذي كنته.

السجين والسجّان، لا يكونا نفس الشخص، قبل وبعد تجربة السجن، أظن أنَّ السجن، يسكن، ويتوطن النفوس، ويعيش فيها لفترة طويلة جدا، رغم مكابرة البعض وإنكارهم.

* **من خلال قراءاتك..كيف تقيّم " أدب السجون" في فلسطين، شعرا ونثرا، وهل ترى أنه أعطى السجين حقه أو استطاع أنْ يقدم تجربته في السجن لاسيما ونحن نعيش تجربة متميزة للنضال الفلسطيني في السجون الإسرائيلية هذه الأيام..؟**

من الصعب بالنسبة لي إصدار أحكام قيمة في هذا الموضوع لسببين، الأول لأنني لست ناقدًا، والثاني صعوبة الاطّلاع على كل ما صدر مما يصنف ضمن أدب السجون، ولكن من خلال ما اطّلعت عليه، فإنني أرى انه أقل بكثير من الملحمة الكبرى التي عاشها شعبنا الفلسطيني في السجون.

واعتقد أنَّ تقديم تجربة حياتية مثل تجربة الحركة الأسيرة، يحتاج قبل أي شيء إلى الصدق، فلا وجود لأدب عظيم بدون الصدق، ولكنني سأغامر لأقول، ليس فقط عن أدب السجون ولكن عن معظم ما قرأته من أدب كتبه فلسطينيون، انه يفتقد الكثير من الصدق.

وعودة لأدب السجون، أود أنْ أُشير بأنني التقيت مؤخرا،أسيرات، من مختلف الفصائل، على هامش احتفال بهن تحدث فيه ثلاثة وزراء، وتحدثن بمرارة عن أنَّ المجتمع يحتقرهن بكل ما في الكلمة من معنى بشع، ويحاسبهن على أمور لم تحدث، والمقصود، التحرش الجنسي بهن من قبل السجّانين، أين مثل هذه القضية مثلا في أدب السجون؟.

لقد كتبت مؤخرا بعد حديثي مع الأسيرات عن أنهن ضحية العقد الجنسية لمجتمعنا، وتساءلت عن موقف المجتمع والفصائل التي تنظم النساء الفلسطينيات عن موقفها لوّ أن أسيرة تعرضت للتحرش فعلا أو حتى الاغتصاب؟. هل يمكن مثلا تناول تجربة الأسيرات إبداعيا دون التطرق لمشاكلهن المؤرقة مثل هذا النوع، والتي تحدد مصائرهن الشخصية؟.

المجتمع يحاسب المرأة، إذا تخلت عن خطيبها أو زوجها الأسير، ولكنه يشجع من طرف خفي، الخطيب أو الزوج الذي يتخلى عن الأسيرة.

ما زلنا نبتعد عن مساءلة قضايانا، وندفن رؤوسنا في الرمال، الوزراء كانوا يكذبون وهم يتحدثون عن بطولات الأسيرات اللواتي يردن حل قضاياهن الملحة، وربما لا يكون ذلك غريبًا وأقصد كذب الوزراء والسياسيين، ولكن ماذا عن الأدباء الأديبات؟ يبدو لي أنَّ الجميع استمرأ الكذب. لذا فإننا نكتب أدبا لا يقرأه أحد. ولا يرقى إلى مستوى تجربتنا.

نحن لسنا أبطالا، نحن بشر، فعلنا مثلما يفعل البشر في أي مكان يمكن أن يتعرضوا فيه لظلم، حاولنا أنْ نقاوم الظلم، والاحتفاظ بإنسانيتنا، هل نجحنا في ذلك؟ ربما الأدب الحقيقي يحاول الإجابة عن ذلك، وليس ذلك النوع من الكتابات، الذي يُقدر عاليا تجارب العنتريات العربية. والمخلص لإرث طويل من بطولات السير الشعبية.

*** سؤال أخير حول أدب السجون.. حيث يرى البعض أن الأدب العربي كله أدب سجون، لأن الأديب العربي مقيد، حتى وهو في بيته، بقيود فكرية واجتماعية واقتصادية وسياسية وفنية..فما بالك بمن هو في السجن.. ما رأيك..؟**

قد يكون هذا تعريفا فضفاضا، ولكن لا أظنه صحيحا، فتجربة العيش تحت الاحتلال، وكذلك تجربة السجن، تختلف كثيراً عن الحياة والسجن في مجتمعات تحكمها أنظمة مستبدة، وقد تكون متساوقة مع الاحتلال. ورغم ذلك أقول، انه لا يمكن المفاضلة بين سجن وسجن آخر، السجن سجن، حتى لوّ كان خمسة نجوم.

عموما، أنا قرأت تجارب أدبية لكتاب جربوا السجون العربية منذ الستينيات، وهي في معظمها تسجل حالات إنسانية بأساليب لافتة، رغم ما في بعضها من محاولات تهويل، وتصفية حسابات.

ولكنني استغربت مثلا ما تناوله كاتب كبير مثل عبد الرحمن منيف، في روايته (شرق المتوسط) التي أغفل عمدا تحديد مكان معين تجري فيه، وأظنه لوّ فعل ذلك، ربما لكانت روايته الجميلة، أكثر حميمية.

*** إذا انتقلنا إلى قصصك.. يلاحظ أن كتابتك متعلقة بالمخيم وأهله.. وأحداثه.. حتى لكأنك تحاول التأريخ للمخيم؟!..**

بعض الزملاء من الكتاب همس لي بأنني كتبت الكثير عن المخيم، وآنَ لي أنْ أَتوقف عن ذلك، ولا أعرف لماذا، ما جاء في سؤالك، لا أعتبره مأخذا، يمكن أنْ يمضي الكاتب عمره في الكتابة عن مكان ما، ولكن السؤال هو كيف كتب وماذا كتب، ومن أية زوايا قدم تلك التجربة أو التجارب..؟

أتمنى لو كان ما قلته في سؤالك صحيحا، رغم أنَّ حقيقة الأمر، أنَّ

روايتي المسكوبية هي رواية مكان عن القدس، و(قبلة بيت لحم الأخيرة) جهدت لتقدم مدينة بيت لحم، ربما لأول مرة إبداعيا، وبهذا الشكل، ومخطوطتي (ثعالب الصحراء) تستعيد المذبحة التي تعرض لها رهبان أحد أقدم الأديرة في العالم وهو دير مار سابا في برية القدس، خلال الحرب الأهلية في فلسطين، والسكوت عنها، عندما آلت البلاد إلى العباسيين.

لقد دفع الفلسطينيون ثمنا باهظا نتيجة تلك الحرب، واتساءل أين هي، وغيرها من الأدب الفلسطيني..؟

*** تزدحم قصصك بالكثير من الشخصيات ويبدو حبك لها واضحاً، الفلسطينية منها بالطبع، أليس ذلك انحيازا يضر بموضوعية العمل الأدبي، كما يعتبره بعض النقاد..؟**

أعتقد أن الشخصيات، تحاول أنْ تمتلك مقومات التطور الذاتي، وتستقل عن الكاتب، الذي يدروه قد يرتكب حماقة، للوقوف في وجه هذا التطور، لعلني فعلت ذلك أحيانا، أنا متأكد بأنني ارتكبت الكثير من الحماقات سواء فيما كتبته، أو فيما عشته ولم اكتبه. وربما هذا ما جعلك تتساءل عن الضرر الذي أصاب العمل الأدبي.

*** لماذا لجأت إلى تكرار ظهور بعض الشخصيات في غير قصة من قصص مجموعة" انثيالات الحنين والأسى" مثلاً "أبو تيسير"، والحاجة نفيسة، وباسل..؟**

هذا جزء من اللعبة الفنية في هذه المجموعة، ومحاولة لإعطاء هذه الشخصيات مساحة أوسع لتقدم نفسها، للقراء، بعد أن حرمتها ظروفها القاهرة، من أن تعبر عن نفسها، بعد سنوات قضتها في الدفاع عن وجودها الواقعي، بعد تعرضها للتطهير العرقي، وفقدان أرضها، وكيانها، وتبعثر هويتها.

obeikandi.com

قصص هذه المجموعة عن أجيال من اللاجئين الفلسطينيين، تتقاطع مصائرهم، على خلفية العواصف العاتية التي ما زالت تضرب الأرض المقدسة.

* **يرى بعضهم أن اعتمادك على تتابع الحكايات في القصة الواحدة، جعل شكل القصة فضفاضاً بحيث يمكن إضافة حكايات أخرى أو حذف حكايات، مما اضعف بنيان القصة..؟**

الشق الأول من السؤال اتفق معه، ولماذا لا تكون القصة "فضفاضة"؟ لماذا لا يكون على القاري، أن يقول الكلمة الأخيرة فيما قرأه؟ مرة أخرى هذا جزء من لعبة فنية لدي شكوك في نجاحها، وهذا ما يبرر القسم الثاني من سؤالك.

* **أيضا انتقد بعض النقاد لجوءك في بعض القصص إلى مقدمة طويلة فيها إسهاب في الوصف، مثل قصة "طوشة الشلن"، أو قصة "خبر العنتري" "انثيالات الحنين والأسى"، مما يضعف القصة ويؤثر سلبا على القارئ..؟**

في هذه المجموعة، ثمة اجتهاد لغوي، كنحت كلمات جديدة، وتفصيح كلمات عامية، واستدعاء كلمات مستخدمة على نطاق واسع، ولها أصل في الفصيحة، أو هي أصلا فصيحة، ولكن شخصيا لم أكن اعرف ذلك، إلا بعد توسع القراءات خصوصا في كتب التراث، لاكتشف سحر هذه الكلمات.

لا أرغب بمعارضة الرأي الذي يرى بان ذلك أضعف القصص، واثر سلبا على القارئ، على الأقل أن تأثيرا ما حدث للقارئ الذي تكبد عناء القراءة مشكورا.

*** إلى أي مدى يسمح للموضوع الفلسطيني أن يطغى على فنية القصة وشكلها، خاصة وأن بعضهم يتهم النص الفلسطيني بأنه مباشر وانفعالي..؟**

لا لا يجب أن يُسمح للموضوع الفلسطيني أو أي موضوع أن يطغى على فنية القصة، هذه كارثة برأيي، وإذا كان ما ذكرته رأي لبعضهم فيما كتبته، فإنني احترم هذا الرأي، وسيكون حافزا لي على ايلاء الفن الأهمية القصوى، فلا أدب جميل خارج شكله.

فإذا أراد احد أن يكتب بشكل مباشر وانفعالي كما تقول، فليكتب بيانا، ويصدر تصريحا!

بالنسبة لي كل عمل هو أولا وقبل أي شيء، مغامرة في الشكل الإبداعي، وإن لم يكن كذلك فلن اكتبه مهما كان الموضوع مؤرقا.

*** أيضا إلى أي مدى يجب أن يلتزم الكاتب بالواقع والأحداث.. وإلى أي مدى يمكن أن تتدخل مخيلته الإبداعية في رسم هذا الواقع..؟**

الأدب، ليس كما يظن الكثيرون، ليس نقلا أو حتى انعكاسا للواقع، أو صورة عنه، وإن كان قد يبدو كذلك، ربما يكون رصدا للواقع في تحولاته وتعقيداته، لذا فلا أَظن أنّ هناك أدبا مهما يلتزم بشكل ميكانيكي بالواقع والأحداث، وحتى لو حاول ذلك فإنه لن ينجح.

الشخصيات "الواقعية" عندما تظهر على الورق، تُخلق من جديد، وتجهد لتحديد مصيرها بنفسها، وأحيانا بشكل مستقل عن الكاتب. الأدب في النهاية ليس واقعاً إنه نتاج مخيلة إبداعية.

oberkandi.com

*** كتب الكثير عن مخطوطات البحر الميت.. ما الجديد الذي أضفته في كتابك "مخطوطات البحر الميت قصة الاكتشاف"..؟**

سؤالك هذا أنا طرحته على نفسي وعلى القراء، خصوصا وأنه ليس لدي أية أوهام أو مزاعم عن أهمية ما أكتبه. وأسأل نفسي دائما ما هو الجديد الذي يمكن أنْ أقدمه؟ وتكون الإجابة في أغلب الأحيان ليست في صالحي. أي شيء كتبته، عندما أعيد قراءته، أُدرك بأنه كان يمكن أن يُكتب بشكل أفضل من ذلك بكثير.

ولكن في هذا الكتاب استطيع أن أقول، بأنني قدمت لأول مرة رواية فلسطينية-عربية، أو بشكل أكثر تحديدا، رواية بقلم كاتب فلسطيني-عربي، ومن وجهة نظره لموضوع مازال يشغل الباحثين في مختلف دول العالم، وبالطبع في الدولة العبرية، ويصدر عنه كتب بانتظام، رغم أن الموضوع يفترض انه يتعلق بنا وبتاريخنا وبإرثنا.

لقد قدمت في هذا الكتاب، رواية غير استشراقية، وغير إسرائيلية، لقصة اكتشاف هذه المخطوطات، على لسان أحد أبطالها وهو محمد حمّاد. الذي ما زال صحافيون وباحثون وكتاب من مختلف أنحاء العالم يقصدونه ليقدموا، بشكل دائم ومملل، قصة استشراقية عن الولدين البدويين اللذين اكتشفا المخطوطات، التي ظلت محفوظة في باطن صحراء البحر الميت، ألفي عام، صدفة.

أَعلمُ أنّ بعض الكتاب العرب، كتبوا عن الموضوع، وقرأت عن فلم تسجيلي أُنتج في سوريا عن الموضوع، ولكن غياب البحث الميداني، ومعرفة صحراء البحر الميت، التي لم يقدم الجغرافيون والإخباريون العرب والمسلمون، عنها وعن فلسطين إرثا معرفيا، مهما أو حتى غير مهمٌ، لا شك سيضعف أي كتابة عن الموضوع. وبدلا من ذلك تواروا خلف ما يعرف بأدب الفضائل.

ولقد أزعجني، ويزعجني، كثيرا الطريقة التي تعامل فيها جلُ الرحالة العرب والمسلمين مع البحر الميت مثلا، لقد احتقروا بحرنا هذا، والصقوا به، مأخوذين بالقصة الدينية التوراتية، التي نقضتها الأبحاث الأثرية والتي نفذها إسرائيليون وأجانب، أسماءً وأوصافا تعبر عن ذلك الاحتقار، مثل تسميته ببحر الشيطان، والبحيرة المنتنة، وعشرات من الأسماء الأخرى.

أنا منحاز للكتابة البحثية الميدانية، ولا أشجع أحدا للكتابة عن أمكنة لم يخبرها ولم يدرسها، وخلال تجوالي البحثي الذي لم يتوقف، اكتشفت الكثير، مما ورد في كتابات البحاثة العرب المعاصرين والأقدمين، والتي تبعث على الضحك، وهي في مجملها إعادة إنتاج للرواية التوراتية لتاريخ فلسطين، ولا استثني من ذلك أحدا حتى كُتاب بحجم ياقوت الحموي، والحنبلي، وابن بطوطة، كل ما كتبه هؤلاء وغيرهم عن فلسطين بحاجة إلى مراجعة جذرية.

وربما يكون الاستثناء، الذي يؤكد القاعدة، هو المؤرخ الفلسطيني المقدسي البشاري، ولا أعرف لماذا حتى الآن لم يتم إنصافه، رغم أن ما كتبه يعتبر متقدما بالنسبة لما كتبه غيره.